وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية
كلية التربية

مجلة كلية التربية

مجلة علمية محكمة

العدد الثاني ٢٠١١
المجلد الأول

(ما) بمعنى (من) في القرآن الكريم

نقد وتوجيه

د.فاطمة ناظم العتابي

المقدمة

إذا كان لكلِّ لغة نظامها الخاص من حيث مستوياتها المختلفة وطرائق تعبيرها واستعمالات أدواتها؛ فإنَّ للعربية نظامها العبقري البديع والدقيق على الأصعدة كافة، والذي جعلها اللغة الخالدة المتفردة- إن صحَّ التعبير- إذ لا نجد لغة متحدثة عمرها يقارب الألفي عام سواها. وساعدها في هذا الخلود بلا شك- إذا لم يكن العامل الرئيس فيه- نزول القرآن الكريم بها الذي هو الكتاب الذي كفل الله جلَّ وعلا حفظه {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} الحجر٩ فكان لها من الحفظ ما له.

وهذه الدقة والإبداع تمثلت في مظاهر كثيرة لا حصر لها قد يكون وضع أدوات خاصة للمعاني المختلفة أحدها، فحتى الأدوات المشتركة التي تعبر عن معنى واحدٍ توجد بينها اختلافات دقيقة في الاستعمال إذ تدلُّ كلُّ أداة على حال استعمالية خاصة كما في أدوات النفي (لن- لا- لم- لما)، وأدوات النداء(يا- الهمزة- أيا- هيا) وغيرها.

ولكنَّ هذه الدقة التي نزعمها للعربية قد يأتي ما يوحي بخلافها ويثير الجدل حول قصدية ألفاظها، كما في استعمال حرف الجرِّ مضمناً معنى غيره[1]، الذي جاء في القرآن الكريم كثيراً، مثل قوله تعالى:{فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً }الفرقان٥٩ أي: عنه، وقوله: { لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}طه٧١ أي: على جذوع النخل، وقوله: {عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً}الإنسان٦ أي: منها.

---

(١) ينظر:تأويل مشكل القرآن:٢٩٨- ٣٠٢، وكتاب معاني الحروف للرماني:١٠٨.

وقد انقسم الدارسون في هذا الموضوع على جبهتين[٢]: الأولى: سلّمت بالأمر وعدَّته تضميناً، وهو رأي الكوفيين. والثانية: رفضته جملة وتفصيلاً وخرجت لنا بتأويلات، وتعليلات تعتمد فيها على فهم جديد لمعاني تلك الأفعال مع اختلاف حروف الجرِّ المصاحبة لها وهو رأي البصريين.

وأياً كان الرأي في هذه المسألة فإنها مثلت- ولو ظاهراً -خرقاً لما تُعورف عليه من معاني حروف الجرِّ عند الدارسين، وظاهرة قرآنية بالدرجة الأساس، إذ لم يرد عن العرب إلاَّ في أبيات شعرية معدودة[٣].

ومما قد يقدح بهذه الدقة والقصدية أيضاً ما يعرف بـ (عطف التوهم) كقوله تعالى: {وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ} المنافقون١٠، والذي خرجه الخليل وسيبويه على أنَّه عطف على التوهم[٤].

ومهما كانت التعليلات التي أعطيت لتسويغ ما يعرف بعطف التوهم، فإنَّ السيوطيَّ أشار في معترك الأقران إلى أنَّ أبا حيان وابن هشام قالا إنَّ عطف التوهم ليس غلطاً بل هو ((مقصود صوابٌ، والمراد منه عطف على المعنى))[٥]. وهو قولٌ سديدٌ يتناسب مع منطق اللغة التي غايتها الإبانة، ولاسيما إذا وقع في القرآن الكريم الذي هو قول الله تعالى الذي لا يتوهم ولا يقع منه الغلط، ومع حقيقة الآية الكريمة فإنَّ (أكن) عُطِفَ ((حملا على محلٍّ ((فاصدق)) وهذا المحل ثابتٌ موجود في الآية لكونه جواب طلب))[٦].

ومن هذه المسائل التي قد توحي بخرق قوانين العربية من حيث الدقة والقصدية في استعمال الأدوات مسألة استعمال (ما) بمعنى (من) في القرآن الكريم الذي هو موضوع هذا البحث، وهي ظاهرة قرآنية بامتياز- بحسب

---

(٢) ينظر :كتاب معاني الحروف للرماني:١٠٨.

(٣) ينظر : تأويل مشكل القرآن:٢٩٨- ٣٠٢.

(٤) ينظر :الكتاب:٣/١٠٠- ١٠١.

(٥) معترك الأقران:٣/٤٩٩.

(٦) النحويون والقرآن:١٩٣.

القائلين بها- إذ ذكروا لها ما يربو على العشرين موضعاً، في حين أنَّ استعمال (من) بمعنى (ما) لم يأتِ إلاَّ في مواضع معدودة، منها قوله تعالى:{وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}النور٤٥، وقد خرجت الآية وغيرها مما يدل على أنها استعملت لغير العقلاء على غير ذلك، فقال ابن يعيش إنَّه استعمل (من) على التغليب[٧].

كما أنه لم يرد عن العرب مثل هذا الاستعمال إلا في قول فرد نسب إلى قريش، وهو قولهم للرعد: (سبحان ما سبحت له)، أي سبحان من سبحت له[٨]، وزاد بعضهم قولهم: سبحان ما سخركن لنا[٩].

ومجيء مثل هذا في القرآن الكريم الذي هو أرقى النصوص اللغوية وأدقها في هذه القصدية التي جاءت من كونه نصاً دينياً تشريعياً معجزاً بالدرجة الأساس، جعل من الأهمية بمكان دراستها وكشف النقاب عن ملبساتها، وتتبع آراء النحويين فيها وتعليلاتهم التي خرجوا بها علينا، وتأثيرها في إعراب الآيات الكريمة وسياقات السور.

أنواع (ما) و(من) وعلاقتهما أحدهما بالأخرى:-

بدءاً علينا أن نتكلم على (ما) وأنواعها، و(من) وأنواعها، وعلاقتهما إحداهما بالأخرى. **أولا: أقسام (ما):**

أمَّا (ما) فإنَّ النحويين قسَّموها على قسمين: اسمية وحرفية[١٠].

فأما الاسمية فتقسم على أقسام بحسب معناها؛ وهذه الأقسام هي:-

١- (ما) الاستفهامية، وتستعمل للاستفهام عما لا يعقل وعن صفات من يعقل. أمَّا ما لا يعقل فكقوله تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى}طه١٧،

---

(٧) ينظر: شرح المفصل:٣/١٠٩.

(٨) ينظر:تأويل مشكل القرآن:٢٨٥، أمالي ابن الحاجب:٢/٨٨٤- ٨٨٥، وشرح الرضي على الكافية:٣/٥٦.

(٩) ينظر: أمالي ابن الحاجب:٢/٨٨٤.

(١٠) ينظر:كتاب معاني الحروف للرماني:٩٧،وشرح المفصل :٤/١٣٥.

وأمَّا صفات من يعقل فكقولنا: جاءني زيد، فيقال:وما زيدٌ؟. أي: أيُّ شيءٍ صفاته.

٢- شرطية، وهي على نوعين:-

أ/ زمانية: مثل: { فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ}التوبة٧، أي: مدة استقامتهم.

ب/ غير زمانية، مثل: {مَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ}البقرة١٩٧.

٣- تعجبية: وهي التي في صيغة التعجُّب (ما أفعل) مثل: {فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّار}البقرة١٧٥

وفي هذه الأقسام الثلاثة (ما): ((اسمٌ تامٌّ بغير صلة ولا عائد، وإنَّما لم توصل لأنَّ الصلة توضيح، وهذه المواضع تقتضي الإبهام))[١١].

٤- تكون خبرية بمعنى الذي على حدِّ تعبير الرمانيِّ[١٢]، أي اسمٌ موصولٌ وهي هنا تحتاج إلى صلة وعائد، وهي أيضاً لغير العاقل، وقد أشار السهيلي إلى أنَّ ثمة اختلافات تختلف بها (ما) الموصولة عن (الذي) إذ قال: ((وأما (ما) الموصولة فهي في قول النحويين بمعنى (الذي) وليست كذلك، وإن وافقت (الذي) في أكثر أحكامها فإنها مخالفة لها في المعنى وفي بعض الأحكام. أما المعنى فإنَّ (ما) اسمٌ مبهم في غاية الإبهام، حتى إنها تقع على كلِّ شيءٍ، وتقع على ما ليس بشيء؛ إلا ترى أنك تقول: إنَّ الله عالم بما كان وما لم يكن، وما لم يكن معدوم، والمعدوم ليس بشيء، فلفرط إبهامها لم يجز الإخبار عنها حتى توصل بما يوضحها؛ وكل ما وصلت به يجوز أن يكون صلة (الذي)، فهي توافق (الذي) في هذا الحكم، وتخالفه في أنها لا تكون نعتاً لما قبلها ولا منعوتة؛ لأنَّ صلتها تغنيها عن النعت أيضاً فلو نعتت بنعت زائد على الصلة لارتفع إبهامها، وفي ارتفاع الإبهام

---

(١١) كتاب معاني الحروف للرماني:٩٨.

(١٢) ينظر: كتاب معاني الحروف للرماني:٩٨.

منها جملة بطلان حقيقتها وإخراجها عن أصل موضوعها. وتفارق (الذي) أيضاً في امتناعها من التثنية والجمع، وذلك أيضاً لفرط إبهامها))[١٣].

٥- تكون نكرة موصوفة مقدرة بـ(شيء) كقولنا :(مررت بما معجب لك)، أي: شيء معجب لك.

أما الحرفية فلها خمسة أقسام كالاسمية، والأقسام هي[١٤]:-

١- أن تكون حرف نفي للحال والاستقبال، فلا تعمل إذا دخلت على الأفعال مثل (ما يقوم زيد)، وكذلك إذا دخلت على الأسماء في لغة تميم مثل: (ما عبد الله خارجٌ)، أما في لغة أهل الحجاز فتعمل عمل (ليس) كقوله تعالى: {مَا هَـذَا بَشَراً}يوسف٣١.

٢- أن تكون مع الفعل في تأويل المصدر ولا تحتاج إلى عائد كقوله تعالى: { ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ }البقرة٦١ أي: بعصيانهم.

٣- أن تكون زائدة مثل:{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ}آل عمران١٥٩. ومن الزائدة الكافة في قولنا: (إنما زيدٌ قائمٌ).

٤- (ما) المسلطةُ، وهي التي تدخل على (ربَّ)؛ فتسلطها للدخول على الأفعال مثل:{رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ }الحجر٢.

٥- المغيرة على ما قال الرمانيُّ[١٥]، وعنى بها (ما) التي في (لوما) فقد دخلت (ما) على (لو) وغيرتها من امتناع الشيء لامتناع غيره، إلى التحضيض مثل: {لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلآئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }الحجر٧.

وبطبيعة الحال فإنَّ الفرق المهم بين الاسمية والحرفية فضلاً عن اختلاف المعاني هو الإعراب؛ فالاسمية لابدَّ لها من محلٍّ من الإعراب في حين أنَّ الحرفية لا محلَّ لها.

---

(١٣) نتائج الفكر:١٨٠.

(١٤) ينظر: كتاب معاني الحروف للرماني:٩٩.

(١٥) ينظر: كتاب معاني الحروف للرماني:١٠٢.

ثانيا: أقسام (من):

وأما (من) فقد ذكر الرمانيُّ سبعة معانٍ تكون فيها للعاقل البتة هي[١٦]:-

١- الاستفهام، مثل: {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا }يس٥٢.

٢- الجزاء، مثل: (من يأتني أكرمه).

٣- موصولة، وهي للعاقل كقوله تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ}البقرة٢٠٠.

٤- موصوفة، كقولنا: مررت بمن خير منك.

٥- المحمولة على التأويل في التثنية والجمع والتأنيث، كقوله تعالى: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ}يونس٤٢فجمع على التأويل، وأما المحمولة على اللفظ فكقوله: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ}الأنعام٢٥ فأفرد حملا على اللفظ، وفي قوله تعالى: {وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ}الأحزاب٣١ حمل على التأويل في التأنيث.

٦- الموسومة بعلامة النكرة، كقول القائل: ((رأيت رجلا، فتقول: من؟ فإن قال: هذا رجل قلت: منو؟ وإنْ قال: مررت برجل، قلت: مني؟ لتسمها بعلامة تدلُّ على أنَّك مستفهم عن نكرة))[١٧] وهكذا في الجمع .

٧- المنقولة من أجل (أم): ويعني أنها نقلت عن الاستفهام من أجل (أم): لأنَّ الاستفهام لا يدخل على استفهام كقوله تعالى: {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ}النمل٦٢.

ثالثاً:أوجه التشابه والاختلاف بينهما:

وبعد أن عرفنا أنواع كلٍّ منهما عند النحويين علينا أن نوضح الخصائص التي يشتركان بها وما يختلفان فيه.

---

(١٦) ينظر: كتاب معاني الحروف للرماني:١٧١- ١٧٣.

(١٧) كتاب معاني الحروف للرماني:١٧٣.

أما ما يشتركان به فإنَّ كلاً منهما تأتي بهذه المعاني (الاستفهام- الشرط—موصولة).

غير أنَّ كلاً منهما نقيض الأخرى من حيث المعنى، فـ(من) للعاقل البتة ،و(ما) لغير العاقل وإن كان يستفهم بها عن صفات العقلاء.

وتشتركان كذلك في أنهما في حال كونهما موصولتين لا توصفان، ولا يوصف بهما وهو ما أشرنا إليه في قول السهيلي في اختلاف (ما) عن (الذي)، وقد علل ابن الحاجب ذلك بقوله: ((أمَّا كونهما لا يوصف بهما فإنهما وضعا للموصوف والصفة جميعاً، ما وضع اسماً لا يوصف به. وأما كونهما لا يوصفان؛ فلأنهما لو وصفا بمفرد كان على خلاف وضعهما لبيانهما بالنسب لا بالمفردات كجميع الموصولات. ولو وصفا بجملة لكان على خلاف قياس الصفات في وصف المعارف بالنكرات))[٢١].

وعلل السهيلي ذلك في (ما) بقوله: ((لا تكون نعتاً لما قبلها ولا منعوتة؛ لأنَّ صلتها تغنيها عن النعت. وأيضاً فلو نعتت بنعت زائد على الصلة لارتفع إبهامها ، وفي ارتفاع الإبهام منها جملة بطلان حقيقتها وإخراجها عن أصل موضوعها))[٢٢].

وقد ذكر أبو حيان في الارتشاف خلافاً بين البصريين والكوفيين في جواز ذلك وعدمه، فالبصريون يجيزون أن يوصفا والكوفيون يمنعون[٢٣].

فإن صحَّ ذلك عن البصريين فهو من باب الاحتكام إلى القياس ليس إلا وهو بابٌ واسعٌ شمل كلَّ جوانب اللغة وفروعها[٢٤].

وتختلفان -فضلا عن كونهما نقيضين في المعنى- في أنَّ (ما) للإبهام، بل هي في غاية الإبهام حتى أنها تقع على كلِّ شيءٍ وعلى ما ليس بشيء[١٨]؛ لهذا لا تقع إلا على جنس تتنوع منه أنواع.

---

(٢١) أمالي ابن الحاجب:٢/ ٨٨٨.

(٢٢) نتائج الفكر:١٨٠.

(٢٣) ينظر: ارتشاف الضرب:٢/ ٣٤٥.

(٢٤) ينظر: الاحتكام إلى القياس وحده في النحو العربي:١٠٠.

(١٨) ينظر: نتائج الفكر:١٨٠، والبحر المحيط:٣/٢٢٧.

أمَّا (من) فليس كذلك لهذا قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }النور٤٥، وقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ} الحج١٨؛ لأنها في هاتين الآيتين وقعت على نوع بعينه في كلِّ ذكر لها[١٩].

وجدير بالذكر أن نشير إلى أنَّ السهيلي عدَّ (من) هنا فرعاً على (ما)؛ إذ يقول : ((ولا أن توجد إلا واقعة على جنس تتنوع منه أنواع -يعني ما- : لأنها لا تخلو من الإبهام أبداً. ولذلك كان في لفظها ألف آخرة، لما في الألف من المد والاتساع في هواء الفم، مشاكلة لاتساع معناها في الأجناس، فإذا أوقعوها على نوع بعينه، وخصوا ما يعقل وقصروها عليه، أبدلوا الألف نونا ساكنة، فذهب امتداد الصوت، وصار قصراً للفظ موازناً لقصر المعنى، فقالوا: من عندك؟ تخصيصاً بما يعقل))[٢٠].

وهو رأيٌ طريفٌ، وتعليلٌ لطيفٌ لاختلاف معناها من خلال العودة إلى اختلاف الأصوات وصفاتها.

وتختلفان كذلك في أنَّ (ما) تنقسم على اسمية وحرفية، في حين أنَّ (من) اسمية فقط.

(ما) بمعنى (من) آراء النحويين فيها وتأويلاتهم:-

وبعد أن قدمنا شيئا موجزا عن (ما) و(من)، وحددنا أوجه التلاقي والاختلاف بينهما، نعرض لمسألة البحث عرضاً مفصلاً.

أما الآيات التي قيل إنَّ (ما) فيها بمعنى (من) فهي:-

١- {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} البقرة٢٢٨.

---

(١٩) ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن:١/٣٠١.

(٢٠) نتائج الفكر:١٨٠- ١٨١.

٢- {إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }آل عمران٣٥.

٣- {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ }النساء٣.

٤- {وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً}النساء٢٢.

٥- {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً }النساء٢٤.

٦- {مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ}النساء٣٣.

٧- {قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ }الأنعام١٢٨.

٨- {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ }هود١٠٨.

٩- {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}هود١٠٧ .

١٠- {وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }هود١١١.

١١- {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ }ص٧٥.

١٢- {وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ }الزمر٨.

١٣- {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ}يوسف٥٣ .

١٤- {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ }الشعراء٢٣ ،

١٥- {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدِّينِ }التين٧.

١٦- {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى }الليل٣ ،

١٧- {وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا }الشمس٥ .

١٨- {وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا }الشمس٦ ،

١٩- {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا }الشمس٧ .

٢٠- {مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ }المسد٢ ،

٢١- {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ }الكافرون٣ .

٢٢- {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ }العاديات٩ ،

٢٣- {وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ }البلد٣.

ونلحظ هنا أنها ظاهرة قرآنية بامتياز فقد جاءت فيما يربو على العشرين موضعا، وتبعاً لبعض الآيات قرر الدكتور عبد الأمير كاظم زاهد أنَّ استقراء النحويين القائل بأنَّ (من) للعاقل و(ما) لغير العاقل ليس بقاعدة مطردة[٢٥]، وقوله هذا فيه نظر: فقبل أن نسلم بأنَّ (ما) في هذه الآيات بمعنى (من) أو نرفض علينا أن نعرف أنَّ القرآن الكريم لا يأتي اللفظ فيه اعتباطاً بل إنَّ كلَّ ((لفظ فيه وضع وضعا فنيا مقصوداً))[٢٦] ، قد لا يفهم إلا من خلال تفحص السياق العام للآية الكريمة أو للسورة كلها.

وقبل أن نبدأ بتحليل الآيات التي وردت فيها (ما) بمعنى (من)، سنعرض – مثالاً على الجميع- آراء عدد من النحويين والمفسرين في معاني (ما) في هذه الآيات والتعليلات التي جيء بها.

---

(٢٥) ينظر: قضايا لغوية قرآنية:١٢١.

(٢٦)التعبير القرآني:٧٣.

وهذه الآراء هي:-

أولا: (ما) مصدرية، وقال بهذا الفراء[٢٧]، والشيخ الطوسي[٢٨] وابن الأنباري[٢٩]، والسهيلي[٣٠] والعكبري[٣١]، والرازي[٣٢]، وأبو حيان[٣٣]،والآلوسي[٣٤] وغيرهم.

قال العكبري في قوله تعالى: { إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}النساء٢٤ ((هي مصدريةٌ، والاستثناء منقطعٌ؛ لأنَّ النهي للمستقبل، و(ما سلف) ماضٍ فلا يكون من جنسه))[٣٥].

والجدير بالذكر أن هذا الوجه أكثر ما قيل في إعراب الآيات من سورة النساء والآيات من سورة الشمس.

ثانيا: ظرفية: وذكره العكبري[٣٦]وجهاً إعرابياً لقوله تعالى:{إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ}يوسف٥٣ .

وأبو حيان لقوله تعالى:(انكحوا ما طاب)، قال: ((وقيل: (ما) ظرفية مصدرية، أي: مدة طيب النكاح لكم))[٣٧].

ثالثا: (ما) حرفٌ موصولٌ بمعنى (الذي)، أي: إنها على بابها في الدلالة على غير العاقل،وقال به أبو عمرو فيما روى عنه ابن قتيبة[٣٨]، وابن

---

(٢٧) ينظر: معاني القرآن للفراء:١/٣، ٢٥٣/٢٦٣.

(٢٨) ينظر: التبيان للطوسي:١٠/٣٥٨.

(٢٩) ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن:٢/٥٤٢.

(٣٠) ينظر: نتائج الفكر:١٨٠.

(٣١) ينظر: التبيان للعكبري:١/٢، ٢٩٤، ٢٨٢/٥٧٠، ٦٣.

(٣٢) ينظر: البحر المحيط:٣/٦، ٢٢٨/٨، ٤٢٥/٧٤٥.

(٣٣) ينظر: التفسير الكبير للرازي:٣/٤٨٦.

(٣٤) ينظر: روح المعاني:٢٣/٢٤٥.

(٣٥) التبيان للعكبري:١/٢٩٤.

(٣٦) ينظر :التبيان للعكبري:٢/٦٣.

(٣٧) البحر المحيط:٣/٢٢٧.

(٣٨) ينظر :تأويل مشكل القرآن:٢٨٥.

الأنباري[٣٩]،والعكبري[٤٠]، وأبو حيان[٤١]. وقد علل القول بهذا الوجه بأنَّها دالة على الإبهام والمتكلم عنه في نحو: (ما في بطني) من المبهمات: ((لأنَّ الحمل إذ ذاك لم يتصف بالعقل))[٤٢].

رابعا: (ما) نكرة موصوفة، وقال به العكبري[٤٣]وابو حيان[٤٤]. فيكون تقدير:(انكحوا ما طاب لكم)، (انكحوا جنسا طيبا) أو (عددا طيباً).

خامساً: (ما) نافية، وهو رأي ذكره أبو حيان[٤٥] للآية الكريمة {نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ}الزمر٨ ، وقد ذكرت مثل هذا الدكتورة بنت الشاطئ[٤٦] عن بعض المفسرين في قوله تعالى: {وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ }البلد٣.

سادسا: (ما) بمعنى (من)، وقال بهذا عدد كبير من العلماء، منهم الفراء[٤٧]، وابن الأنباري[٤٨]، العكبري[٤٩] وابن الحاجب[٥٠]، ومكي بن أبي طالب[٥١] وأبو حيان[٥٢]والرازي[٥٣] والسيوطي[٥٤]وغيرهم كثير.

---

(٣٩) ينظر:البيان في غريب إعراب القرآن:١/٢٠٠.

(٤٠) ينظر: التبيان للعكبري:١/٢١٨.

(٤١) ينظر:البحر المحيط:٢/٦٩٧.

(٤٢) البحر المحيط:٢/٦٩٧.

(٤٣) ينظر: التبيان للعكبري:١/٢٨٢.

(٤٤) ينظر: البحر المحيط:٣/٢٢٧.

(٤٥) ينظر: البحر المحيط:٦/٥٥٦.

(٤٦) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم:١٧٣.

(٤٧) ينظر: معاني القرآن للفراء:٢/٣،٤١٥/٢٦٣.

(٤٨) ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن:٢/٥١٦.

(٤٩) التبيان للعكبري:١/٢، ٢٩٤/٥٧٠.

(٥٠) ينظر: أمالي ابن الحاجب:٢/٨٨٤.

(٥١) ينظر: مشكل إعراب القرآن:

(٥٢) ينظر: البحر المحيط:٢/٣،٦٩٧/٢٩١.

(٥٣) ينظر: التفسير الكبير للرازي:٣/٤٨٦، ٣١.

(٥٤) ينظر: همع الهوامع:١/٢٩٨.

وقد قال السيوطي إنَّ ابن درستويه وأبا عبيدة ومكياً وابن خروف يقولون بوقوعها :((على آحاد من يعقل مطلقاً))[٥٥].

ولأن مجيء (ما) بمعنى (من) لا تكاد تعرفه العرب على ما قال الفراء[٥٦] وجد النحويون –على عادتهم– إن لا مناص من إعطاء علة تبيح لهم مثل هذا القول الذي أخرج أداة لغوية عن معناها الذي عرفت به، ولاسيما هذا في القرآن الكريم موجود. فكانت من تعليلاتهم التي أعطيت لتجويز مثل هذا ما يأتي:-

١- علل مجيء (ما) بمعنى (من) بالندرة[٥٧] أو القلة قال الفراء: ((وقد يجعل العرب (ما) في بعض الكلام للناس، وليس بكثير))[٥٨]، وعدها أبو حيان مذهباً مرجوحاً[٥٩].

٢- التعاقب[٦٠]، والمقصود به أن تأتي كلٌ منهما مكان أختها.

٣- علل ذلك بأنه لغة من لغات العرب إذ حكى أبو زيد[٦١] أنَّ أهل الحجاز يقولون للرعد : (سبحان ما سبحت له)، أي: سبحان من سبحت له.

٤- علل بالجواز، فقد قال الفراء إنَّ ذلك جائز في العربية[٦٢]، والجواز في العربية باب واسع استغله النحويون بمهارة[٦٣].

٥- أنَّ (ما) تقع لصفات العقلاء فجاز هنا وقوعها بمعنى (من) لهذا السبب[٦٤].

٦- أنها واقعة على الأصناف أو الأجناس[٦٥].

---

(٥٥) همع الهومع:١/٢٩٨.

(٥٦) ينظر : معاني القرآن للفراء:

(٥٧) ينظر : همع الهوامع:١/٢٨٩.

(٥٨) معاني القرآن للفراء:١/١٠٢.

(٥٩) ينظر : البحر المحيط:٣/٢٢٧.

(٦٠) ينظر : التفسير الكبير للرازي:٣/٤٨٦.

(٦١) ينظر :شرح الرضي على الكافية للرضي:٣/٥٥.

(٦٢) ينظر :معاني القرآن للفراء:٣/٢٦٣.

(٦٣) ينظر : الجواز النحوي:٢٠- ٢١.

(٦٤) ينظر :شرح المفصل:٣/١٤٥ ،وهمع الهوامع:١/٢٩٨.

(٦٥) ينظر :البحر المحيط:٣/٤، ٢٢٧/٢٨٥.

٧- المطابقة أو المقابلة[٦٦]، أي مطابقة الشيء لما قبله أو ما بعده وهذا الرأي قيل في آيات محدودة مثل قوله تعالى: (لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد).

٨- قدَّم الرازي وأبو حيان تعليلاً طريفاً لمجيء (ما) بمعنى (من) في الآيات من سورة النساء، قال أبو حيان: ((عبَّر بـ(ما) عن النساء؛ لأنَّ إناث العقلاء لنقصان عقولهن يجرين مجرى غير العقلاء))[٦٧] ، وهي علة خَلقية إن جاز لنا تسميتها بهذا، ولا أجدها مقبولة أو مسوغة.

وقد لحظنا أنَّ هذه الوجوه التي قيلت لإعراب (ما) لم يقل بها واحد من النحويين دون سواه؛ فهم مشتركون على عادتهم في إعطاء وجوه محتملة دون الانتباه إلى تغير المعنى بتغير الوجه الإعرابي.

والمعلوم أنَّ تعدد الأوجه الإعرابية ظاهرة نحوية مهمة؛لأنها من علامات المرونة والاتساع التي تتمتع بها العربية[٦٨]، غير أنها قد تؤدي إلى تغير في معنى الآية أو في الإعراب أوقد تؤدي إلى فساد في المعنى. وليس لنا أن نقول إنهم إنما يركبون الصعب في قولهم بهذه الوجوه المتعددة، وأنهم لا يجدون مناصا من ذلك ولا مندوحة، فهم يفعلون ذلك -غالبا- لإظهار البراعة في النحو، ولو كانت هذه الوجوه آتية مما تحتمله الآية من معانٍ لكان الأمر مسوَّغاً.

وسنضرب أمثلة تبين ذلك.

في الآية الكريمة {نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ}الزمر٨ نجد المعنى يتغير كليا حينما تكون (ما) بمعنى (من) عنه إذا كانت بمعنى (الذي) وكذلك عنه إذا كانت مصدرية، أو نافية. فهذا أبو حيان يقول: ((نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ}الزمر٨: أي ترك، والظاهر أنَّ (ما) بمعنى (الذي)، أي: نسي الضر الذي

---

(٦٦) ينظر: أمالي ابن الحاجب:٢/٨٨٤، والبيان في غريب إعراب القرآن:٢/٥٤٢، والبحر المحيط:٨/٧٤٥.

(٦٧) البحر المحيط:٣/٢٢٧. وينظر: التفسير الكبير للرازي:٣/٤٨٦.

(٦٨) ينظر: تعدد الأوجه الإعرابية في القرآن الكريم:١٨.

كان يدعو الله إلى كشفه. وقيل: (ما) بمعنى (من)، أي نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل في كشف ضره. وقيل: ما مصدرية، أي نسي كونه يدعو، وقيل: تم الكلام عند قوله:(نسي)، أي: نسي ما كان فيه من الضر. و(ما) نافية، نفى أن يكون دعاء هذا الكافر خالصاً لله مقصورا من قبل الضرر))[٦٩].

ولو تتبعنا الآية الكريمة في سياق السورة لوجدنا الوجه الوحيد المحتمل والمناسب هو بمعنى (الذي).

وكذلك يبين ذلك ما قال العكبري في قوله تعالى: (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك): ((في (ما) وجهان: أحدهما: هي بمعنى (من) والمعنى في هذا: أنَّ الأشقياء من الكفار والمؤمنين في النار، والخارج منهم منها الموحدون، وفي الآية يراد بالسعداء الموحدون، ولكن يدخل منهم النار العصاة، ثم يخرجون منها، فمقتضى الآية أول الآية أن يكون كلُّ الموحدين في الجنة من أول الأمر،ثم استثنى من هذا العموم العصاة، فإنهم لا يدخلونها في أول الأمر. والوجه الثاني: أنَّ (ما) على بابها، والمعنى أنَّ الأشقياء يستحقون النار من حين قيامهم من قبورهم؛ ولكنهم يؤخرون عن إدخالها مدة الموقف، والسعداء يستحقون الجنة ويؤخرون عنها مدة الموقف))[٧٠].

ومن تأثيره في الإعراب تأثيره في العائد الذي له تأثير في المعنى أيضا، كما في قوله تعالى{فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ}النساء٢٤، فالعكبري يحدد العائد من خلال تحديد معنى (ما)، إذ قال: ((في (ما) وجهان: أحدهما هي بمعنى (من) والهاء في (به) تعود على لفظها. والثاني: هي بمعنى (الذي)، والخبر (فآتوهن)، والعائد منه محذوف، اي: لأجله، فعلى الوجه الأول يجوز أن تكون شرطا وجوابها (فآتوهن) والخبر فعل الشرط، وجوابه (أو) فقط،.. ويجوز على الوجه أن تكون

(٦٩) البحر المحيط:٦/٥٥٦.

(٧٠) التبيان للعكبري:٢/٤٥.

بمعنى (الذي) لا تكون شرطاً، بل في موضع رفع بالابتداء(واستمتعتم) صلةٌ لها ، والخبر فآتوهن))[٧١].

أما ما يؤدي إلى فساد في المعنى فنحو الوجه القائل بأنَّ (ما) في قوله تعالى: {وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ }البلد٣. نافية، وهو وجه أفسد معنى الآية فضلا عن أنه ليس له ملحظ من السياق على حدٍّ تعبير الدكتورة بنت الشاطئ[٧٢].

ولو استعملنا الاعتباطية في تعدد الأوجه وقلنا إنَّ (ما) في (ما استمتعتم به) مصدرية لفسد المعنى المراد على ما ذكر العكبري[٧٣]، فضلا عن أنَّ الهاء في (به) قد تعود على (ما)- كما ذكرنا سابقا في تغير العائد مع تعدد الأوجه الإعرابية- والمصدرية لا يعود عليها ضمير.

والملاحظ أنَّ الكثير منهم لا يتلفت لمثل هذا عند تعداده للوجوه التي يراها محتملة. فضلا عن أنَّ هذه الوجوه قد تفتح لبعض النحويين الباب لجوازات تحتكم إلى القياس وإن تعارضت مع الذوق والسماع العربيين[٧٤].

فالأخفش يقول في الآية الكريمة:{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدِّينِ}التين٧:((فجعل (ما) لـ(الإنسان) وفي هذا القول يجوز: (ما جاءني زيد) في معنى: الذي جاءني زيدٌ))[٧٥].

ولو أخذنا بقياسه هذا لضاعت الغاية من اللغة- أي الإبانة- إذ لا يعرف المراد من الجملة أهو النفي أم الإثبات؟، ولجوزنا شيئاً لم يرد عن العرب، ولا ترضى به سليقتهم وذوقهم اللغويّ.

والأولى في مثل هذه الآيات أن نلحظ السياق الذي وقعت فيه الآية فضلا عن معنى الآية الدقيق الذي قد يتغير تماما لو لم يرد هذا اللفظ دون سواه. فالسياق

---

(٧١) المصدر نفسه:١/٢٩٨.

(٧٢) ينظر: التفسير البياني للقرآن:١/١٧٣.

(٧٣) ينظر :التبيان للعكبري:١/٢٩٨.

(٧٤) ينظر: أطروحة الاحتكام إلى القياس وحده في النحو العربي:

(٧٥) معاني القرآن للأخفش:٢/٥١٨.

كما هو معلوم له حاكمية وسلطة لا نستطيع التغاضي عنها، ولاسيما الحال إذا كان النصُّ قرآناً[٧٦].

وقد حكم السيد الطباطبائي السياق في رفضه للقول بأن (ما) في سورة الشمس مصدرية، إذ قال: ((وقيل: مصدرية والمعنى وأقسم بالسماء وبنائها والأرض وطحوها، والسياق وفيه قوله:(ونفس وما سواها فألهمها) آلخ لا يساعده))[٧٧].

ولو أمعنا النظر في الآيات من سورة الشمس لوجدنا أن جعل (ما) هنا بمعنى (من) سيؤدي إلى إخلال بالمعنى المراد منه الإبهام المفيد للتفخيم على حدِّ تعبير السيد الطباطبائي[٧٨]، فضلا عن أننا سننزل الخالق منزلة قريبة من المخلوق باستعمالنا (من) فالآيات التي تليها تتحدث عن الإنسان مستعملة الاسم الموصول(من)، والغاية من الآيات التي وردت فيها (ما) هنا هو إظهار عظمة الخالق والتعجب من قوته، ولن تؤدي (من) ذلك.

ويبدو لي أن السيد الصدر في منة المنان أعطى جوابا شافياً لاستعمال (ما) هنا دون (من)، إذ قال إنَّ: ((لـ(من) الموصولة حدين: حدٌّ أدنى وهو المشهور، حيث قالوا: إنها لمن يعقل و(ما) لغير العاقل. وحدٌّ أعلى، وهو ما نعبر عنه بعالم الخلق أو عالم الإمكان أو عالم المحدودية. أما ما كان أعلى من هذه العوالم الثلاثة وهي الإمكان والخلق والمحدودية، فهو خارج عن حدِّ (من) الموصولة. وهو الله تعالى فإنه أعلى من عالم الإمكان لأنه واجب الوجود، وأعلى من عالم الخلق؛ لأنه الخالق، وأعلى من عالم المحدودية؛ لأنه لا متناهياً بذاته وصفاته، إذن فهو أعلى من أن نعبر عنه بـ(من) لأنه أعظم من كلٍّ من (يعقل)....فمن حدها الأدنى البهائم، وحدها الأعلى من كانت حكمته وعقله غير محدود فلا نعبر عن كلا الحدين بـ(من) التي هي للعاقل))[٧٩].

---

(٧٦) ينظر :نظرية السياق:٥٥- ٥٧.

(٧٧) الميزان:٢٠/٢٩٧.

(٧٨)) ينظر: الميزان:٢٠/٢٩٧.

(٧٩) منة المنان:١١٠.

ولابن الحاجب كلامٌ مشابهٌ لقول السيد الصدر في استعمال (ما) للدلالة على الذات الإلهية إذ قال: (((ما) لما لا يعقل كثيراً، وقد جاءت لمن يعقل قليلاً، و(من) لمن يعقل كثيراً ولغيره قليلاً، وأورد عليه أنه قد قيل: سبحان ما سخركن لنا، وسبحان ما سبح الرعد بحمده، وهي مطلقة على الباري وليس واحداً من القبيلين))[٨٠] ويعني بـ(القبيلين) العاقل وغير العاقل. ثم قال جواباً عن هذا: ((وأما سبحان ما سخركن، وسبحان ما سبح الرعد بحمده، فإنه لما كانت ذات الباري غير معلومة الحقيقة صارت مبهمة بهذا الاعتبار))[٨١].

ومن هنا قال الله تعالى عن نفسه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} الشورى١، ومن هنا أيضاً يصح أن يقال لله شيء كما جاء عن الإمام الباقر عليه السلام في كتاب التوحيد للشيخ الصدوق[٨٢].

ونستطيع أن نتلمس الاختلافات في السياق وفي المعنى بين آيتين متشابهتين اختلفتا في استعمال (ما) و(من) بوصفها دليلا على أنَّ استعمال (ما) في جميع الآيات جاء موافقا للمعنى المراد وأنَّ استعمال (من) قد لا يفي بالغرض المنشود.

وهذا قد يكون من باب (الاقتدار) الذي عرفه السيوطي بأنَّه إبراز المتكلم((المعنى الواحد في عدة صور اقتدارا منه على نظم الكلام وتركيبه وعلى صياغة قوالب المعاني والأغراض))[٨٣]. وإن كان ما نقله عن ابن أبي الإصبح عن هذا الفن قد يوحي بأنَّه مقصورٌ على القصص القرآني[٨٤]، ولكن لنا في قول الدكتور فاضل السامرائي إنَّ ((القرآن كله حشد فني عظيم متكامل))[٨٥] شفيع وعضيد، وهو الذي له باع طويل في هذا الفن الذي سماه بـ(الحشد الفني)، وقد بين أنَّ الاختلاف في اختيار لفظ دون آخر قد يراعى فيه((أمور عديدة

---

(٨٠) أمالي ابن الحاجب:٢/ ٨٨٤.

(٨١) المصدر نفسه.

(٨٢) ينظر: التوحيد، الشيخ الصدوق، باب ٧، ج ١، ص ١٠١ـ ١٠٢.

(٨٣) معترك الأقران:١/ ٢٩٤.

(٨٤) ينظر: المصدر نفسه والصحيفة والجزء أنفسهما.

(٨٥) التعبير القرآني:٢٢٩.

وجوانب كثيرة، فقد يراعى السياق الذي ورد فيه التعبير، والسورة التي ورد فيها السياق، والسياقات الأخرى التي يرد فيها تعبير مقارب لهذا التعبير، والسور الأخرى التي فيها مواطن تعبيرية متشابهة أو مختلفة))[٨٦].

وقد لا يكون من هذا الباب ولكننا سنلمح للمعنى الدقيق المراد بـ(ما) دون (من) في الآيات التي نتخذها مثالاً.

من هذه الآيات قوله تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ }الشعراء٢٣والتي يقابلها قوله تعالى:{قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى }طه٤٩. فلأيِّ شيءٍ استعمل في الشعراء (ما) و في طه (من) مع أنَّ القصة واحدة؟.

الذي يبدو أنَّ السياق الذي وقعتا فيه هو الذي أدَّى إلى ذلك فسورة (طه) من بداياتها نلمح فيها الدلالة على الرحمة والاهتمام بالعبد ورفع المشقة عنه إذ قال: {طه. مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } طه١- ٢، وحتى عندما عرج على قصة موسى وفرعون نجد القصة بدأت بقول موسى لأهله: {إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى } طه ١٠، وذكر الأهل أو الأسرة فيه من الرحمة والرقة الشيء الكثير، في حين نجد سورة الشعراء بدأت بالتهديد والوعيد وعرض قدرة الله الذي منَّ على مخلوقاته بكلِّ شيءٍ، قال تعالى:{ طسم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم من السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ. فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون. أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ.وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }الشعراء١- ٩، وحينما بدأ بعرض قصة موسى عليه السلام بدأها بقوله: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}الشعراء١٠، وهذه بداية فيها من الكبرياء الإلهي الشيء الكبير، وهو ما لا نلحظه في سورة (طه).

كذلك استعمل ضمير المفرد في سورة (طه) إذ قال: {قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى }طه٤٦، في حين استعمل ضمير الجمع في سورة الشعراء

---

(٨٦) المصدر نفسه.

فقال: {قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ }الشعراء١٥. والفرق في استعمال ضمير المفرد عن ضمير الجماعة واضح إذ الأول فيه من القرب المعنوي والعطف الشيء الكثير، في حين يدل الثاني على التكبر والجبروت الإلهي ويتضح هذا في قوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ }البقرة١٨٦، في حين نجده استعمل ضمير الجمع في نحو قوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً }النساء١٠٥{إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ }المائدة٤٤ {إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ }الزمر٤١ وهي مواقف تتطلب التعظيم للنفس وإظهار القوة والجبروت، بل نجده أكّد هذا الضمير بالضمير المنفصل في قوله:{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }الحجر٩، ليؤكد المعنى المراد في النفوس ويبين حقيقة القوة التي أنزلته ووعدت بحفظه.

وإذا نظرنا إلى نهاية السورتين نجد أنَّ سورة (طه) انتهت بقوله تعالى: {قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى }طه١٣٥، في حين أن سورة الشعراء انتهت بقوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ }الشعراء٢٢٧.

ومن هنا يتبين لنا سبب استعمال (من) في سورة (طه) واستعمال (ما) في الشعراء التي يتطلب سياقها العام إظهار عظمة الرب مع إبهام حقيقته- إبهام تفخيمي على حدّ تعبير السيد الطباطبائي- فهو رب العالمين الذي يتحكم بمخلوقاته بعظمته وجبروته، في حين أنَّ استعمال (من) في سورة (طه) جاء متناسبا مع سياق السورة العام الذي يتطلب بيان رحمة الخالق واهتمامه بعباده ورأفته بهم،

فضلا عن إضافة (الرب) إلى ضمير موسى وهارون- عليهما السلام- الذي ساعد على إظهار ذلك بشكل جلي.

كذلك إذانظرنا إلى قوله تعالى: {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ }العاديات٩ ،لوجدناه يختلف في استعمال الموصول عنه في قوله: {وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ }الحج٧وقوله: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ }فاطر٢٢، مع أنَّ المتحدث عنه واحد وهو الأموات.

ولنا أن نقول إنَّ استعمال (من) في الآيتين من سورة الحج وسورة فاطر جاء مناسباً للأفعال المستعملة في الآية (يبعث- ويسمع) فالبعث والسمع من خصائص العاقل وهذا يتطلب استعمال موصول يختص بالعاقل، في حين نجد أنَّ الفعل (بعثر) لا يختص بالعاقل بل يطلق غالبا على الأشياء المادية أو غير العاقلة من مثل التراب والمال والمتاع وسواها فيقال: بحثر متاعه وبعثره أي بدده فتبدد وفرقه وقلبه بعضه على بعض[٨٧]. ومن هنا قال السيد الصدر في منة المنان أنَّ ثمة وجهين لاستعمال (ما) في هذه الآية:أما الوجه الأول فإن المراد هو جنازة الإنسان أو جثته أو التراب الحاصل منهما وهذا كله مما لا يعقل. وأما الوجه الثاني: فإنَّ ((خروج الموتى يتم ببعثرة التراب في القبور لإخراج من فيها))[٨٨]. والثاني يتطابق تماماً مع معنى الفعل (بعثر)، وكذلك في آية سورة العاديات الإبهام مطلوب لغرض التشويق والتحذير.

أما قوله تعالى:{وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ}يوسف٥٣، فالمرجح عندي أنَّ (ما) هنا مصدرية: أي وقت رحمة ربي؛ فالمعنى يدلُّ على ذلك فهو لا ينفي عن النفس- أي نفس كانت- أن تأمره بالسوء ولكن ثمة أوقات ينتفي ذلك فيها- أي لا تكون النفس أمارة بالسوء- ومنها

---

(٨٧) ينظر: مختار الصحاح:٤١.

(٨٨) منة المنان:٢٤.

وقت نزول رحمة الله ومن هنا جاء في الدعاء المأثور ((ربي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين لا أكثر من هذا ولا أقل))، وهو أحد رأيي العكبري في الآية[٨٩].

فما أراه من القول إنَّ (ما) تأتي بمعنى (من) هو رأيٌ شخصي لبعض النحويين للآيات التي قيل إنَّها تحتمل ذلك، وقد ساعدهم على ذلك ولعهم بذكر الأوجه المتعددة في إعراب كلمة (ما) حتى لو لم يكن المعنى يعضدها، أو لم يرد بها سماع كما في قول ابن جني في خصائصه عن إعراب {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ } والوجوه المحتملة فيها[٩٠].

وثمة دليل آخر على ادعائنا هذا، هو أنَّ النحويين إنما يعطون الوجوه الإعرابية المتعددة بشكل اعتباطي فما يجوزونه في آية يمنعونه في أخرى من دون أن يكون ثمة مانع من معنى أو سياق أو غيره، فهذا الفراء الذي قال في مواضع عدة إنَّ (ما) بمعنى (من) يمنع ذلك في قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ}ص٢٤ ، إذ قال:((ولو لم ترد المصدر لم تجعل (ما) للناس؛ لأنَّ (من) هي التي تكون للناس وأشباههم)) [٩١]. فلو لم يكن القول بمجيء (ما) بمعنى (من) عنده اعتباطيا لأعطى عذراً آخر غير هذا لمنعه جعل (ما) بمعنى (من) هنا، ولقال كقول العكبري الذي منع من جعل (ما) مصدرية في قوله تعالى {فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ} النساء٢٤ لفساد المعنى ولعودة الضمير على المصدر الذي لا عائد له. فإن تبين لنا هذا أصبح القول إنَّ (ما) تأتي بمعنى (من) مفنداً لا صحة له ولا دليل عليه.

خلاصة البحث:

نستخلص من كلِّ ما قدمناه أنَّ قول النحويين بمجيء (ما) بمعنى (من) فيه نظرٌ، إذ لا نستطيع التسليم به مع استطاعتنا ردَّ ما قدموه من أدلة وتعليلات بأدلة دامغة من سياق أو دلالة، أو استعمال العرب الفصحاء.

---

(٨٩) ينظر: التبيان للعكبري:٢/٦٣.

(٩٠) ينظر: الخصائص:١/٣٩٩.

(٩١) معاني القرآن للفراء:٢/٤٠٠.